

تصدير المترجم

يطل من الصورة طفلان. أحدهما يرتدي عوينات شمسية، يتطلع إلى عدسة الكاميرا بجرأة ويضحك، أما الآخر فيبدو خجلاً حذراً، يزين رأسه تاجً ويبرز من ظهره جناحان. وخلف الطفلين تمتد قامة شخص بالغ وتتجاوز المشهد. بهذه الصورة تستقبل تريزا پرياور، الفنانة التشكيلية ومصممة الغلاف، قارئ باكورة إنتاجها الأدبي. وما أن يشرع القارئ في مطالعة أولى الصفحات، حتى يكتشف أن تريزا پرياور، الروائية، قد أعدت له صورة أخرى، ولكن هذه المرة من أحرف، أو هذا ما يبدو للوهلة الأولى، فيجد نفسه مرة أخرى أمام طفلين ورجل. ويكتشف أن الرجل هو الجد، والطفلين هما الحفيدان اللذين يقضيان العطلة الصيفية لديه، ويتعلمان منه التحليق بالأجنحة والحروف. وتدرجياً تتشكل

لم أٌحقّق التّقَدّم المنشودَ في الكتابة،
فركبتُ آلةَ الطيرانِ
وحلّقتُ بعيداً.

الصورة الثالثة من ذكريات الجدل وحكايته مع اليابانية الحسنة. وصفحة بعد الأخرى، تنتقل الفنانة التشكيلية بريشتها من لوحة إلى أخرى، تضيف تفصيلاً هنا وأخرى هناك. ويكتشف القارئ أنه أمام قصيدة طويلة، وإن أخذت شكل الرواية، تتشابك فيها الأزمنة والأحداث. ويتداخل فيها صوت الرّواية مع أصوات الشخصيات. وتتلاحم فيها ذكريات طفولة الرّواية مع ذكريات الجدل. ويتحقق فيها حلم الطيران بفعل الكتابة. أما لغة هذا القصيد البديع، فتتسم بالبساطة الشديدة. وتكاد من فرط بساطتها أن تخفي أكثر مما تفصح به، فتحفّز القارئ على قراءة ثانية، لعله يتبين فيها ما غمض عليه في الأولى.

محمود حسنين

مانهايم/ ألمانيا - 2015

في آلة طيران على شكل حبة فول، أسفلها ثلاث
عجلات، وخلفها مروحة، وأعلىها مظلة بيضاء مصممة
على هيئة بئلة زيزفون، تجلس الطيارة وخوذتها فوق
رأسها، وقفازها يغطي أصابعها، ومنديلها حول فمها.
وأمامها تطير الطيور، بيضاء رمادية، في تشكيلة على هيئة
V، أقدامها الموحلة مضمومة، ومناقيرها مبسوطة في وجه
الريح.

وتحت الطيارة والطيور، الأرض مقسمة إلى حقول،
صفراء وبنية، وبينها أنهار وبحيرات صغيرة. أشجار آتت
أكلها، وأخرى احمرت أوراقها. وفوق كل ذلك السماء،
بيضاء، تتخللها غيمات ملونة تنعكس على صفحة الماء،
في الأسفل، على الأرض. تطير الطيارة مع الطيور، وفي
وجهها تهب الريح وتسطع الشمس.

خرج الناس من سياراتهم يلوحون إلى أعلى في اتجاه
السماء. وفوق حقل تتخلله آثار سوداء، غطت بقعة
ضخمة فاتحة اللون كل شيء تحتها.

إنه إيهام شقيقي الذي يمسك بيده البطاقة البريدية، وعليها الطيارة وأُتُوجَرافها. نتأملها في صمت ونلصقها على الحائط، دون أن نأبه للمكتوب على ظهرها. يدلف جدي إلى الغرفة، ويرى البطاقة، يسأل إن كنا لا نستطيع أن نقرأ. لأنه، كما يقول، يستطيع القراءة ويسط سبابة ووسطى يده اليمنى في الهواء، ويصيح «فَاو» نرسمه عند النصر، «فَاو» أول حرف في كلمة «طائر» بالألمانية، «فَاو» هكذا تطير الطيور!

حرف الفَاو (V) تَسْهُل كتابته ويمهد الطريق إلى حرف الـ W. وإن قلبناه نكاد نحصل على حرف الـ A. ومع حرف الـ A تبدأ كل بداية. تبدأ كلمة «العين» بالألمانية. عين «الپَقَاو» (الطاووس) مثبتة في ريشه، حيث ترى ألوانًا: أزرق، أخضر، بنيًا، تبدو مثل حروف O كثيرة. أقول وشقيقي وفمًا مفتوحًا: O.

جدي وجدتي يعيشان في بيت فوق هضبة. في حديقتيها يسكن الكثير من الطيور، نتعلم منها الكتابة والقراءة. إننا في الصيف، ووالدانا قد سافرا. سافرا في رحلة حول العالم، ويرسلان إلينا يوميًا بطاقة بريدية. على وجه البطاقة يرسمان بانوراما للمكان الذي يوجدان فيه، وعلى ظهرها

يخطن تعليقات وتحيات. نعرف أنه حين تمتد بانوراما البطاقات حول جدران غرفتنا وتتلاقى سيعود والدانا. وحتى ذلك الحين، يوجد ما يكفي من أعمال. إدخال طيور جدينا إلى مساكنها مساءً، والتقاط بيضها من الأعشاش صباحًا، مهمة شقيقي ومهمتي.

دجاج وحجل وطاووس وتُدْرُج وطيور صغيرة كثيرة، يسمونها طيور الزينة. ينتف الدجاج والحجل عشب الحديقة نهارًا، وينعم بمأوى مسقوف ليلاً. طيور الزينة تبقى في المطير. ويتخطى الطاووس والتُدْرُج، حين تكون الشمس ساطعة، الحقول المجاورة للبيت والحديقة، حتى يبلغا بداية الغابة ونهاية أرض جدينا. وحين أقف وشقيقي أسفل في الحديقة تتطلع إلى أعلى حيث الحقل، فنرى الاثنين، التُدْرُج في الأمام، والطاووس في الخلف. وأحيانًا يدوران بضعة أمتار في الهواء فوق الحقل كالدوائر الملونة، ويقعان سريعًا على أرضه. الطاووس في الخلف، والتُدْرُج في الأمام. وفي المساء نقبض على الطيور ونعيدها إلى عُشَّتها.

شقيقي وأنا اثنان. نشبه بعضنا البعض مع أن شقيقي أصغر سنًا. لدينا الشعر نفسه، والعينان نفسهما، وأصابع

اليد نفسها، وأصابع القدم نفسها، ويكون لدينا السواد نفسه تحت الأظافر، عندما نعود من الحديقة ونجلس إلى مائدة المطبخ.

يكون الجد في انتظارنا ويعطينا دروسًا في الطيران بالطبق وأدوات المائدة. يُوجّه أنفينا وأذرعنا. أنترعُ وشقيقي السكاكين وندفع رأسينا إلى الخلف. نصعد من الأرض إلى الدكة، ومن ثمَّ إلى مائدة الطعام. ينفخ الجد الهواء في اتجاهنا، وكأنه الريح. ويصبح بأسماء الاتجاهات السماوية. وتصبح الجدة: هبوط! وتعطي الإشارة بالمريلة.

الهبوط والإقلاع مناورات: على الطيور أن تصعد وتهبط مع آلة الطيران دون أن تُصابَ من أجزائها. تطير الطائرة على مهل، تكاد لا تسمع المحرك، وتميل بجسمها في كل الاتجاهات لتوجيه مسار آلة الطيران. وهو أمر يشبه بصورة ما، كما تتذكر في تلك الأثناء، الطيور حين كانت تمسكها وتديرها في يديها، حين كانت في قشر البيض لا تزال.

تزيد الطائرة من سرعتها، وتطير الطيور أسفل آلة الطيران في تشكيلة، تُبدّل أماكنها في إطارها. ثم تطير

الطيارة نفسها في المنتصف، وترى الطيور حولها تتنفس، وهي تضرب بأجنحتها في الهواء.

منحت كل طائر منها اسمًا: ذا الساق الحمراء، وذا الريش الكثيف، وذا العين المُبرِّقة يطير بين وتحت السحب.

شقيقي وأنا نريد أن نطير عاليًا في السماء، ونحلّق فوق السحاب. بعد أن تناولنا الطعام، نسلل إلى السندرة ونصنع آلتين من الورق والقماش والسلك، يضع كل منا آلة حول نصف جسده الأعلى ويثبتها حول بطنه. نعدو خارجين من البيت ونازلين على المرح، ونجذّف بأيدينا. نصيح نحن نطير، بينما نحن نسقط، حتى يسمعنا الجد والجدة.

يقف جدي أمام البيت وينظر إلينا مليًا، ثم يهز رأسه ويصرخ المرة تلو الأخرى: هذا لا يبدو أمرًا جيدًا! شقيقي وأنا لا نأبه به. تركنا الحديقة خلفنا، ونتدحرج الآن على الهضبة حتى نكاد نصل إلى الشارع في الأسفل، بينما الريح تُصَفّر في أذنيننا.

أثقل من الهواء، نسمع الآن جدي من بعيد، هذا أثقل

من الرصاص! يلج البيت مهرولاً، يعود، يُعمّر بندقيته التي يستخدمها أيام الأعياد ويطلق عدة طلقات بارود في الهواء. شقيقي وأنا نلثم آلتينا ونعود منكسي الرأس مثقلي الحِمل إلى البيت.

لا نريد أن نتبادل كلمة مع جدي. يسود السكون في البيت، حتى تنادي علينا جدتي لتناول الطعام. جدي جالس إلى المائدة يدخن. وجدتي تقف أمام البوتاجاز، والأبخرة تتصاعد من الأواني. تطن ذبابة حتى تحبطها جدتي بيدها. جدي يدندن، يقف ويذرع المطبخ جيئةً وذهاباً وهو يدق بقدمه على الأرض.

شقيقي يبدأ في التصفيق بين الخطوات. وأبدأ في القرع بملعقة على الأطباق في الحوض والأواني على البوتاجاز. تحبط جدتي بيدها مرة أخرى على الذبابة الميتة، ومرة أخرى، وتقرع على عتبة النافذة فيما بين ذلك.

بعد ذلك نعود للحديث مع بعضنا البعض. يعانقنا الجد ويقول: أنا بدأت مثلكم بالضبط. يفتح زجاجة البيرة بسكين ويبدأ:

بين الحرب الأولى والثانية دام سلام قصير كان كافياً للإمساك بالطائرة الورقية في فناء المدرسة وفزدها لتصير

رخصة طيار، ختموها، وكما يقول جدي، قبل أن أعرف مع مَنْ وضد مَنْ، كان زادي جاهزاً. يقولون إنه يكون ضعف وزن الجسم بالنسبة للطيور المهاجرة، أما بالنسبة لي فكان سبعة أشياء بالتمام والكمال، وانطلقت إلى ما وراء البحار. حلقْتُ في السماء وتوقفت عن عدِّ الأيام. كان الجحيم بعينه، جوٌّ عاصف وبارد، وحلمتُ أنني قُصِفْتُ بين قوى العالم المتصارعة. ولو كنتُ أعرف جدتكم وقتها، لتسنى لي التفكير فيها وقتها وتحمل كل ذلك.

فتح جدي زجاجة بيرة أخرى. حلَّ المساء. أوقدت جدتي الشمعة على المائدة وقالت: حين يحل الظلام لا يرى المرء شيئاً، وغادرت المطبخ. زجاجة الليمون خاصتنا تضيء الآن باللون الأخضر والأحمر. يشعل جدي سيجارة بلهب الشمعة، يدخنها حتى نهايتها تقريباً ويتركنا، شقيقي وأنا، نسحب نفساً. ندور كمروحتين ونسقط من المقعد. تتمدد على الأرض ونرى النجوم. يشرح لنا جدي الملاحة والتوجيه.

في مكان ما بين السماء والأرض تعرفتُ على اليابانية،